ملاحظات على عهود ما قبل التاريخ السورية
(قطنـــا)

للارشمندريت يوسف نصر الله

تعريب وتلخيص محمد كامل مهندس

كنا منذ بضع سنين(١) عملنا على تحديد المكانة التي كان عليها عهد ما قبل التـاريخ في سورية ، وندبنا هذا التأخر في حين كانت البلاد المجاورة وفلسطين خاصة تظهر فيهـا لوحة للمدنيات التي حددت أرضها منذ العهود الحجرية المتأخرة حتى نهاية مدنيات عهد البرونز .

منذ ذلك التاريخ اهتم بعض المشتغلين البحاثة في عهود ما قبل التاريخ بهذه المدنية المجهولة التي أخذت تخرج من الظل ، وقد خصصت مجلة الحوليات الأثرية السورية لهذه الأبحاث عدة مقالات واحتوى الجزء الثالث عشر سنة ١٩٦٣ ص ١٧٥ – ٢٠٩ مقالة مصورة [ملاحظة على خمس أمكنة من العصر الحجري الحديث في سورية] لوايم ج – ڤان لير وهنري دي كونتنسون تتناول اكتشاف خمس مراسب أرضية أربعة منها في حوض الشام : سهل الصحراء ، منابع بردى ، صيدنايا وتل الرمـاد بالقرب من قطنـــا والأخير هو بقراص في حوض الفرات الأوسط . وقد خصصت صحيفتان ونصف لدراسة قطنا الحقت بهـــا سبع لوحات وسبع صفحات تفسيرية .

---

(١) منهج مما قبل التاريخ السوري في مجلة العاديات السورية سنة ١٩٣٧ صحيفة ٤٩ – ٥٢ .

فمرسب تل الرماد ليست مجهولة في عهود ما قبل التاريخ السوري وكنا منذ سنة ١٩٣٧ كتبنا بهذا الصدد : « وبالتأكيد فالمكان الأكثر أهمية ... فالطبقات تمتد على تل مغطى بالرماد حيث تكثر العظام والقطع الفخارية والأفران كما أعطى أدوات حجرية غزيرة وهامة جداً ، وقد كشفت صناعة هذه الأدوات عن تأثيرات ثلاثة لصناعة العصر الانيئوليتي وجدت منطبقة ومصنفة في فلسطين وهي الغسولي ، والطاحوني ، والكنعاني ... ومن المحتمل أن يقدم إلينا مدنية لا تقل غنى وأهمية عن مدنية تليلات الغسول وغيرها من التلول الفلسطينية ، وبذلك سيسمح لنا بأن نرى على الأرض السورية الصناعات الأولى لعصر البرونز[١] .

وقد فوجئنا حين لم نصادف أية إشارة الى ما كان قد كتب حول موضوع قطنا ولإتمام هذا النقص أو « لإعطاء ما لقيصر لقيصر » فقد رأينا كتابة هذا المقال ، ونحن إذ نقوم به بكل ترحاب فلأننا كنا هيأنا سلسلة من اللوحات مختارة من أجود مجموعاتنا الشخصية المأخوذة من المكان ذاته بغية نشرها في مجلة « جمعية ما قبل التاريخ الفرنسية » .

أما تل الرماد فكان معروفاً قبل سنة ١٩٣٦ من قبل موظفين كانا في سورية في ذلك التاريخ وهما الكومندان بريفوست ، والسيد كومبان (من مصلحة الجمارك) وقد فحص هذا الأخير ذلك التل فحصاً طبقياً بالاشتراك مع الضابط بوتو الذي أخذ تاريخاً لنشر فحصه في مجلة [ما قبل التاريخ الفرنسية] سنة ١٩٣٦ رقم ١٠ وبناء على نصيحتنا فقد خصصت له صفحة ١٣٠ سنة ١٩٣٧ .

وبما أن عناصر المقارنة الوحيدة المتوفرة لدينا في هذا التاريخ هي أبحاث ما قبل التاريخ الفلسطينية فقد صنفنا قطنا في الانيئوليتي المقابل للغسولي مع تأثيرات من الطاحوني وقد يكون من الكنعاني الأول أيضاً[٢] . وتحت نفس العنوان صنف ل . برخالتر هذا المكان في نشرته ما قبل التاريخ[٣] .

---

(١) مجلة العاديات السورية المقال المذكور ص ٥١ ـ ٥٢ .

(٢) المقال المذكور سابقاً .

(٣) مجلة متحف بيروت سنة ١٩٥٩ الجزء الثامن .

هذا وكانت قطعنا موضوع إشارة خاصة مع صور ملاط أخذناها نحن بأنفسنا من الأرض ذاتها وذلك في مقال الرد الذي خصصناه للغسولي في درعا [١] .

كان كل من السيدين كومپان وپوتو قد جمع بضع مئات من القطع من هذا المكان وفكرا بتخصيص مقال طويل عنه ولكن شيئاً من هذا لم يتم بسبب نقل أحدهما من حامية دمشق وعودة الآخر الى فرنسا ، ونتساءل عما جرى لمجموعاتهما القيمة التي تحتوي على أدوات حجرية عن بعض الأماكن في سورية وخاصة عن منطقة [قاضي شركس] على بعد [٢٠٠] م الى الأمام من تل الرماد ؛ الأشرفية في وادي بردى ؛ والقنيطرة وتدمر ؟ هذا ما نجهله .

وبالنظر لموقع تل الرماد في سورية الوسطى وأهمية الصناعة الحجرية المجموعة منها فانها تتراءى لنا ذات أهمية رئيسية ، كما أن حفريات (بيبلوس) جبيل قدمت إلينا تتابع المدنيـــات النيئوليتية والانيئوليتية كما هي في تطورها على الشاطيء اللبنـاني ـ السوري [٢] ، وعلى أثر فحص التلال الفلسطينية فحصاً جيداً فإن علماء عهد ما قبل التاريخ الفطاحل تمكنوا من متابعة تدرج هذه المدنيات نفسها في هذه المنطقة التي ليست إلا امتداداً طبيعياً لسورية ، ومع ذلك فإن نقصاً لا يزال باقياً : ما هي الملاقات أو ما هي نتائج تداخل هاتين المنطقتين فهل النيئوليتي السوري الذي بامتداده نحو الجنوب أوجد النيئوليتي الفلسطيني ، أم أن النيئوليتي في جبال يهوذا وعلى شواطىء الأردن الذي بامتداده نحو الشمال كان أصلاً لتطور آخر المدنيات في سورية ؟ ففي الشمال الفلسطيني ثبتت بعض الأماكن مسيرة العهود مثل شعار الحاكولان ، ابو اصبع ؛ وسورية ولبنان الجنوبي يقعان على نفس خط القنيطرة [٣] مختارة ، نبطية وكلها طبقات أرضية منضدة .
وقد تقدم لنا طبقات قطنا مفتاح هذا السر وأملنا بالسيدين هـ . دى كونتسون ووليم ج ـ ڤان ليو اللذين هما في سورية واللذين استحقا البحث في عهود ما قبل التاريخ السوري أن يدرسا بما عرف عنهما من جدارة هذه المنطقة وان يوضحا هذه القضية الرئيسية .

عسى هذه الأسطر ومـــا يصحبها من صور لأخف القطع التي حملناهـــا الى باريس [٤] تقدم لهما عوناً متواضعاً لكشف النقاب الذي يغطي هذه المرحلة من عهود ما قبل التاريخ في الشرق الأدنى .

---

(١) BSPF ١٩٥٦ جزء LIII صحيفة ٧٣٩ ـ ٧٤٢ .
(٢) ج كوفان ، الصناعات الحجرية في جبيل [لبنان] في الأنتربولوجيا سنة ١٩٦٢ جزء LXVI صفحة ٤٨٨ ـ ٥٠٢ .
(٣) انظر ما كنا كتبناه عن الطبقات غير المنشورة في BSPF ١٩٥٦ ص ٧٤٢ وصور ١ ، ٢ ، ٣ .
(٤) كنا جمعنا بضع مئات من القطع في تل الرماد ، بعضها خزّن في بيتنا في النبك ، وبعضها في دير مبهري القديس بولس في حريصة . وبعض العينات وضعت في متحف دمشق .

اللوحة الاولى [١]

١ - ٢ - ٣ رؤوس نشاب متطاولة غير مجنحة ، تهذيب مستوي يمكن تمييزها خاصة في القطعة رقم ٣ وهي ذات مقاطع مثلثية الشكل ، لم يتناول التهذيب للقطعة رقم (١) إلا عند رأسها من الوجه السفلي ، على عكس الرقم (٢) المهذبة في جميع وجوهها تقريباً ، وأما القطعة رقم (٣) فهي مسننة قليلاً في أطرافها ومهذبة عند رأسها وقاعدتها . ويمكن مقارنة الرقم ٣ مع المدية المهذبة بشكل معكوس والمنشورة من قبل ج كوفان الصناعات الحجرية في تل بيبلوس صورة ١

٥ - ٧ - ٨ رؤوس سهام ذات ساق واجنحة ، الساق عريضة وظاهرة قليلاً لا يمتد التهذيب بالضغط عليها إلا عند منطقة الساق بحيث يظهر ضلعها المركزي .

٤ - ١١ - ١٥ - ١٦ - ١٧ رؤوس سهام من نفس النموذج حيث يمتد التهذيب فيها الى ما بعد الساق على الطرف الواحد وأحياناً على الطرفين .

٦ - ١٤ - ١٩ رؤوس سهام من نفس النموذج مهذبة في الوجه العلوي وفي الرقم (٦) في الوجه السفلي والجوانب .

١٠ رأس سهام من نفس النموذج ولكنه مكتّل ومهذّب في وجهه العلوي .

٩ - ١٣ رؤوس سهام ذات ساق قصير .

١٨ رأس سهم بيضوي الشكل ذو مقطع عدمي مسطح الوجهين .

١٥ رأس سهم من نفس النوع مسطح قليلاً .

اللوحة الثانية

١ - نصلة متطاولة ذات حدين وضلع ظهري محفوظ ولها مسننات خفيفة تحمل على طرفها الأيسر ووجهها السفلي بريق الاستعمال .

٢ - ٣ نصلات متطاولة ذات حدين مهذبة في جانبيها من الوجه العلوي .

٤ - نصلة ذات حدين وهي كمثيلاتها يلاحظ فيها القاعدة الضيقة والمقطع المثلثي .

٥ - موس ذو حد واحد مقوس قليلاً .

٦ - موس ذو شطرين .

---

(١) انظر فيما يتعلق بالألواح المقال الأصلي من القسم الأجنبي من المجلة (المعرب) .

٧ – نصلة رفيعة ذات حدين عمودها الظهري محفوظ ، حدها الواحد طبيعي والآخر مسنن .

٨ – نصلة ذات شطرين لها عمود ظهري أحد حديها مطرق والثاني مصقول من أثر الاستعمال .

٩ – ١٠ نصال من ذوات الشطرين والحدين .

١١ – نصلة ذات شطرين وحدين تحتفظ بعمودها الظهري .

١٢ – نصلة ثخينة ذات حدين وشطرين .

١٣ – ١٥ – ١٦ القسم النهائي من منجل حده الأول مطرق والآخر مهذب .

١٤ – موس من نفس النموذج .

١٧ – نموذج جميل للقسم الأوسط من منجل أحد أطرافه مطرق والآخر مسنن .

١٨ – ١٩ قطع من نفس النوع مع بريق الاستعمال .

٢٠ – قطع من نفس النوع ولكن بسننات كبيرة .

٢١ – سنان مضاعف التهذيب في نهايته المدببة ، وله فرض في طرفه الأيسر .

٢٢ – نموذج جميل لمنجل له حد مطرق والآخر حاد .

اللوحة الثالثة

١ – نصلة ذات شطرين وحدود مطرقة حولت الى ثاقبة .

٢ – نصلة رأسها مكسور من طرفيه .

٣ – منجل ذو حدين أحدهما مطرق والآخر مسنن عليه بريق الاستعمال .

٤ – نصلة ذات شطرين من الصوان الأسود ولها حدان وقد محي ضلعها الظهري بمهارة .

٥ – نصلة ذات شطرين من الصوان الوردي ذات حدين .

٦ – ١٠ أحجار صغيرة الأخيرة منها من نوع الأوبسيدين .

١١–١٤ نصلات ذات سوق من الصوان الأسود وهي ذات حدين مهذبة قليلاً ، وبما أن هذه القطع مكسورة فمن العسير التكهن بما كانت عليه الغاية من صنعها ، ولكونها مدببة الرؤوس فقد تكون استخدمت كنشاب أو موس لقطع الحرير .

١٢–١٣ رؤوس سهام مسطحة ذات عمود ظهري ممحي .

١٥ – ٢١ جزء من مدبة من نوع مينة الدالية .

١٦ – ٢٠ رؤوس بمقطع مثلثي .

١٧ – منقش جميل وكان في الأصل نصلة منجل أو موس .

١٨ – سنان مقوس قليلاً مصنوع بدقة .

١٩ – نوع من المنجل أحد حديه مطرق والآخر مسنن .

٢٢ – نصلة من نفس نوع الرقم ٤ من اللوحة الثانية .

اللوحة الرابعة

١ – نصلة ثخنها ٣ مم مهذبة من جميع أطرافها قد تكون استخدمت كمقشط .

٢ – نموذج جميل لنوع من المنجل يظهر عليه بريق الاستعمال .

٣ – مقشط نصف دائري .

٤ – خنجر من نوع مينة الدالية .

٥ – موس جميل ولكنه مع الأسف مكسور ، حده مسنن قليلاً – يمكن مقارنته مع الرقم ٧ من اللوحة ١١ من (أبو غوش) سيريا ١٩٥٢ XXIX صحيفة ١٣٣ لوحة XI

.

****

نحن أمام محطة طبقية ظاهرة وامكانيات خلط بعض القطع مع بعضها غير مستبعدة ، ولكن سيادة عدد من بعض الأدوات النموذجية ستقودنا الى تحديد العهد الذي يعود اليه تل الرماد .

واننا نلاحظ منذ الوهلة الأولى بان لوحاتنا لا تمثل الا نماذج للأدوات الخفيفة واننا لم نحمل معنا الى باريس لا الفؤوس الصغيرة ولا الكبيرة ولا المجارف وهي موجودة في تل الرماد وقد أشار الى وجودها بوتو [١] كما تحتوي عليها مجموعتنا ، هذا وإن السيدين فان لير و كونتنسون قد نشرا بعضا منها في الصور X ، XI ، XII ويظهر تشابه كبير بينها [٢] وبين ما حصل عليه السيد بيرو في (ابوغوش) : فؤوس لوزية الشكل مصقولة عند مقطعها لها وجهان مقببان وحد مستدير مصقولة باعتناء في وجهيها كالصقل الموجود على قطع (شعار الحاكولان) . وفؤوس مسطحة على شكل أشباه منحرفات ذات نحت واسع قليلة السمك بشكل عام ، نحتها مقوس قليلا ، وبعضها مصقول على الوجهين وبعضها لا يدل على أي صقل . فؤوس عريضة . فأس ذات مقطع بيضوي مستدير تقريبا مصقول كله [٣] ، وفؤوس صغيرة مثلثية ومسطحة .

وهذه القطع المميزة للعهد النيئوليتي لأبي غوش مصحوبة كما هو الحال في تل الرماد بالفأس العادي الغسولي وببعض الفؤوس والقطع النـادرة المشتقة من الفن الطـاحوني [٤] ؛ وكذلك قليل أو كثير من المطارق .

إن جميع نماذج السهام الموصوفة من قبل السيد بيرو في (ابوغوش) [٥] لها مثيل في تل الرماد بما فيها متسلسل الطاحوني وهذا ما يؤلف تماسا أثريا مفيدا مدعوما بما هو موجود في

---

(١) المقال المذكور ، صحيفة ١٣٠ .

(٢) مجلة الحوليات الأثرية السورية المقال المذكور ، صور X ، XI ، XII .

(٣) قارن بين الرقم ٤ من الصورة ٤ أبو غوش سيريا المقـال المذكور في ص ١٢٦ والرقم ٢ الصورة X من تل الرماد ـ الحوليات الأثرية المقال المذكور صفحة ٢٠١ .

(٤) فان لير المقال المذكور اللوح XI ، ٣ .

(٥) سيريا المقال المذكور صورة ٤ رقم ٢ الحوليات الأثرية السورية المقال المذكور صورة XII رقم ٤ .

[الخيام] (١) كما يلاحظ تطابق شبه تام بين عناصر المناجل والنصال المنحوتة والمهذبة والأسنة والمثاقب والمقاشط الدائرية . ونحن في لوحاتنا لم نقدم أي منقش ولكن فان لير و كونتنسون عرفا منها (٢) عدداً كبيراً .

وان فحصاً أكثر تعمقاً للأدوات ومقارنتها بما وجد في جبيل (بيبلوس) سيسمح لنا بأن نزيد في تحديدنا الزمني وأن نعرف إلى أية مرحلة من النيئوليتي تعود قطعنا بالنسبة لما حدده ج كوفان ، ومنذ الآن وصاعداً يجب علينا أن نستبعد النيئوليتي الحديث الذي يتميز بانعدام رؤوس السهام والمناجل ذات المسننات الضخمة .

ومهما كانت الصناعات الحجرية للنيئوليتي الأوسط والنيئوليتي القديم متقاربة فإن فروقاً تظهر مع ذلك بين المدنيتين وهذه الفروق ستسمح لنا بأن نربط قطعنا بالمدنية الأولى أكثر من الثانية وذلك لتعاصر المناجل ذات المسننات الضخمة مع غيرها من المسننات الرفيعة ولتعميم القطع المسطح الذي كان مخصصاً للسهام والخناجر في النيئوليتي القديم ، ولاستدامة وجود فؤوس مسطحة ذات قطع عريض مستقيم وأسنة ذات مسننات من الوجهين وأسنة ثخينة ذات وجهين وخاصة العثور على مقاشط من نوع جيد طويلة في أحد طرفيها نصف مستديرة في الطرف الثاني لوحة [IV ٣ ، ٦] . وقد هجر التل في العصر النيئوليتي الحديث وسكن في العصر الانيئوليتي القديم كما يثبت ذلك وجود أسنة مثلثية الشكل ذات تهذيب مسطح من نموذج مينة الدالية [لوحة IV و III ١٥ ، ٢١] ومن نوع المنجل المقوس أو المثلثي الشكل .

فبيبلوس في الشمال ، وشعار الحاكولان في الجنوب يؤلفان القطبان لصناعة حجرية واحدة كان يظهر أنهما مفصولان ويبحث عن ارتباطهما اليوم ، فقطعنا التي تقع على منتصف الطريق بين هاتين المدنيتين تؤلف اشارة لمسيرة النيئوليتي نحو فلسطين .

---

(١) رؤوس سهام من الناطوفي والطاحوني في فلسطين في BSPF ١٩٥٢ XLIX رقم ٨ ص ٤٤٧ قارن بين الرقم ١٦ من الصورة ٦ لهذا المقال الرقم ٢٢ من لوحة X سيريا المقال المذكور مع الأرقام ٧ – ١١ فصور VII لفان لير مجلة الحوليات الأثرية المقال المذكور ص ١٩٥ والأرقام ١٢ و ١٣ من لوحتنا الثالثة .

(٢) المقال المذكور صورة VIII ٦ – ٩ .